عن وطن لن يصبح ذكريات بيتي في القدس*

بيان نويهض الحوت**

اليوم الأخير الذي عشت فيه في بيتي في القدس، كان اليوم السادس والعشرين من نيسان، سنة ١٩٤٨. كان الوالد قد اتخذ القرار أخيراً بسفرنا إلى لبنان لزيارة الأهل، وقضاء فترة ريثما تهدأ الأحوال، لم يكن توفر المواصلات سهلاً بسبب ندرة البنزين، وكان أخي خلدون قد غادر البيت باكراً بحثاً عن سيارة تُقلُّنا إلى عمّان، وبقينا نحن - أبي وأمي وأخواتي وأنا والحقائب - في الانتظار.

عاد أخي، وهو يقول: "السيارة عند الباب". سأله والدي: "هل تأكدت من السائق أن لديه ما يكفي من البنزين؟" - "نعم". - "وهل قلت له بأنني عائد معه إلى القدس من عمّان". - "نعم".

وهكذا.. وبكل بساطة، غادرنا. وكان كثيرون من الجيران قد غادروا قبلنا، وهم يتعجبون منا كيف نبقى في القدس ولنا في لبنان أهل وبيت. أذكر جارتنا، الست زكية، وهي تبكي بكاءً مراً، وتقول لأمي: "سأبقى وحيدة يا خالتي أم خلدون، سأبقى وحيدة". وأمي تؤكد لها بأنها بضعة أسابيع، ونعود.

أعترف اليوم بأنني كنت سعيدة في ذلك اليوم، وأكاد لا أصدق أن حلمي برؤية جبال لبنان الخضراء سوف يتحقق. أنا من صغار الأسرة الذين لم يقوموا بزيارة الموطن الأول بعد؛ بسبب الحرب العالمية وما تلاها.

لم أتعجب من خلوِّ الشوارع تقريباً من السيارات والبشر، لكن ما أثار قلقي أننا عندما مررنا بالقرب من مقبرة مأمن الله (ماميلا)، رأيت أمي وأبي يتبادلان النظرات الحزينة، ورأيت الدموع تنهمر من عينيّ أمي. لماذا تبكي أمي؟ كنت أعرف أن ضريح أختي الحبيبة مها في ذلك المكان، وكم كنت أتألم عندما كانوا يرفضون أخذي معهم لزيارتها قائلين لي في كل مرة أنهم سوف يأخذونني عندما أكبر. كنت أتمنى أن أزور ضريحها ولو مرة، فأنا أحبها ولا أعرفها، كانت تكبرني عمراً، وقد اختارها الله إلى جواره وهي في الثالثة. هل حقا أننا قد لا نعود، كما قالت الست زكية؟ لا،.. مستحيل. لا،.. ممكن. إذاً، لماذا تبكي أمي وكأنها تمر بضريح مها للمرة الأخيرة؟

أعوام مرت قبل أن أعترف لأمي بمخاوفي في تلك اللحظات، لكنها لحظات ومرت. ولا تقاس مخاوفها بمخاوف الأعوام التي تلتها، بل العمر الذي تلاها.

لم يكن والدي يتحدث كثيراً عن الأيام التي عاشها في القدس قبل سقوطها، وكذلك أخي خلدون، وهو من أوصلنا من عمّان إلى دمشق، وبعد أربعة أيام قضيناها في ضيافة الخالة أنيسة، أوصلنا إلى رأس المتن في لبنان، مسقط رأس والدي، ثم عاد إلى القدس في صباح اليوم التالي. ما عرفته عن أيامهما الأخيرة تلك، عرفته على مدى العمر. كان كل منهما لا يتكلم إلا رداً على سؤال. جزء من مأساة ضياع الوطن.. أننا نعتقد أننا نتكلم كثيراً عن ضياعه، غير أن العمر يمضي، قبل أن نكتشف أن ما لم نتكلم عنه أكثر بكثير مما ذكرناه أو تذكرناه.

المرة الأولى التي استمعت فيها إلى من يتحدث أمامي بإسهاب عن مصير بيتي في القدس كانت في أوائل الخمسينيات، وكنا قد غادرنا لبنان لنقيم في عمّان، حيث استقر والدي. اقترب عيد الميلاد، وكانت مفاجأة يوم أذنت إسرائيل للفلسطينيين بزيارة أقربائهم في الأردن، مشترطة عليهم أن يقضوا سحابة يوم العيد فقط، ثم يعودوا من بوابة مندلبوم قبل انقضاء النهار. كلنا انتظرنا على أحر من الجمر زيارة الست إميلي والست إدما، وهما شقيقتان وجارتان لنا في البقعة الفوقا، إذ توقعنا أن تقوما بزيارة أخت ثالثة لهما في عمّان، ومن ثم تأتيان لزيارتنا. كان هناك قرع على بوابة الحديقة في الثالثة بعد الظهر، فهُرعنا جميعنا لنفتح البوابة.

---

* نشر في ملحق «فلسطين» - جريدة السفير، بيروت، العدد الثاني، ٢٠١٠/٦/١٥.

** مؤرخة فلسطينية مقيمة في بيروت.

قالت الست إميلي: إنهم (أي الإسرائيليين) لم يتمكنوا من فتح باب بيتنا أول مرة (فقد كان الباب من حديد صلب يصعب قهره، ويقع في منتصف الدرج الطويل المفضي إلى الدور الثاني). غير أنهم سرعان ما أحضروا سلالم عالية، وتسلقوها حتى وصلوا إلى الشرفة الكبيرة، وتمكنوا من فتح بابها. وقد أعربت الست إميلي عن الدهشة التي أصابتها من إصرارهم على الدخول هكذا، فهم لن يستطيعوا السكن في البيت عن طريق السلالم المؤقتة، لكنها عادت لتقول إن السبب اتضح سريعاً، حين توقفت أمام المنزل شاحنة كبيرة فارغة، وشاهدت عدداً كبيراً من الشباب يعاونون بعضهم البعض، منهم من يقذف بالكتب من الشرفة إلى الحديقة، ومنهم من يجمعها، ومنهم من يوصلها إلى الشاحنة، في حين يتولى آخرون تكديسها فوق بعضها. ولم يتعبوا. استمروا على هذا الحال عدة ساعات، حتى تمكنوا من السطو على المكتبة كاملة. وقد علمت هي فيما بعد من السكان اليهود الذين احتلوا البيت بأنهم وجدوا خزانات الكتب كلها فارغة.

طوال الحديث، لم يتكلم والدي كلمة واحدة. سؤال واحد وجّهَه في النهاية، للست إميلي: طمئنيني عنكم، وعمّن تبقّى من الجيران؟

كانت السنوات تمضي.. ومكتبة والدي الجديدة في عمّان تكبر، حتى بتُّ أتجرأ على سؤاله عن هذا الكتاب أو ذاك، إلى أن رأيته مرة، يكاد لا يستطيع الإجابة، وهو يقول بصوت منخفض وبألم: "كان عندي في مكتبتي في القدس". ولما قالها للمرة الثانية، ما عدت أجرؤ على سؤاله عن أي كتاب، وكنت أنتظر خروجه من البيت؛ حتى أبحث بمفردي...

بعد أكثر من نصف قرن على حديث الست إميلي، قرأت مقالاً عن مصير المكتبات الخاصة في القدس الغربية بالذات، للكاتب الإسرائيلي غيش عميت (مجلة Jerusalem Quarterly ، العدد ٣٣، ٢٠٠٨، ٧ - ٢٠)، وعنوانه: "أشياء لا مالكين لها؟ حكاية الكتب التي خلَّفها الفلسطينيون وراءهم سنة ١٩٤٨". وفي نهاية المقال لائحة بأسماء مكتبات في أحياء البقعة والقطمون والطالبية والمصرارة وغيرها.. وعلى رأس اللائحة "مكتبة عجاج نويهض البقعة". كنت أعلم أن غيش أميت، قد كتب رسالة جامعية حول موضوع المكتبات العربية في القدس، وكنت أتابع عمله، وأقدّر جهوده وخاصة لكونه أول من كتب في موضوع شائك وحساس كهذا، وقد حاول جاهداً أن يظهر بمظهر الباحث عن الحقيقة، غير أنني عجبت منه، حين نقل من غير تعليق ما ورد في تقرير "المكتبة الوطنية" عن الفترة ما بين كانون الثاني ١٩٤٨ وحزيران ١٩٤٩: "الكتب الفلسطينية لم يكن لها مالكون بالأصل. الكتب وُجدت ببساطة، مبعثرة تحت رحمة من يمر بها، حيث كان ممكناً أن يتعثر المار في الشارع بمجموعة من الكتب مجهولة المصدر"، ويشيد الكاتب، في أكثر من مكان، بالجيش الإسرائيلي الذي بذل الجهود "المضنية" لجمع الكتب!!

أين هذا التجني الفاضح من الواقع؟! جميع أصحاب المكتبات المذكورة أسماؤهم لا يمكن تصور مشهد كتبهم ملقاة في الشوارع. وأين هذه الترَّهات من شهادة الست إميلي، التي رأت بعينيها كيف تمت سرقة مكتبتنا بتخطيط مسبق، واقتحام علني للمنزل في وضح النهار! ثم إن والدي لم يترك مكتبته وراءه كما قال التقرير، وهو من الذين لم يغادروا القدس أصلا، وقد سجل أحداث الأيام الأخيرة حتى الخامس عشر من أيار وما بعده في مذكراته: "ستون عاماً مع القافلة العربية" (١٩٩٣؛ ص ٣٠٧ - ٣١٧)، وموجزها أن اللجنة القنصلية في القدس، المؤلفة من قناصل الولايات المتحدة وفرنسا وبلجيكا، تقدمت إلى أحمد حلمي باشا، عضو الهيئة العربية العليا والمسؤول الأول في ذلك الوقت، بـــ "صيغة مؤقتة لمواد الهدنة في فلسطين" [العنوان الأصلي بالإنكليزية: Provisional Draft: Articles of Truce for Palestine، وأبرز ما في موادها الأربعة عشرة: تبدأ الهدنة من منتصف الليل ١٢ - ١٣ أيار؛ تتوقف الأعمال العسكرية والعنف، ولا تدخل قوات مسلحة لأي من الفريقين خلال الهدنة؛ تعتبر كل من الهيئة العربية العليا والوكالة اليهودية مسؤولة عن البلاد التي بحوزتها، مدة الهدنة ثلاثة أشهر، يُرفع الأمر بعدها إلى مجلس الأمن". وقد أكد القناصل أن "هذا آخر ما يُستطاع عمله دولياً لدرء الخطر عن فلسطين".

كان والدي يمر يومياً على مكتب حلمي باشا في مقر الهيئة العربية العليا في البقعة التحتا، والمسافة بين بيتنا ومقر الهيئة مئتا متر تقريباً، وقد قام والدي بترجمة المقترحات فوراً، وعمل أخي على طباعتها، وغادرا القدس معاً إلى عمان في اليوم التالي، مع رسائل من حلمي باشا إلى الملك عبد الله في عمّان، وإلى المفتي الحاج أمين الحسيني في دمشق، وغيرهما. وفي مساء الثالث عشر من أيار قابل والدي الملك عبد الله، فأكد له الملك بأن الجيش الأردني زاحف بإذن الله، ولما طلب منه والدي أن يرافق الجيش، رحب بذلك. وفعلاً، في اليوم الرابع عشر من أيار، زحف الجيش العربي الأردني مخترقاً شوارع عمّان، غير أنه لما وصل إلى أريحا توقف، واستغرب والدي من هذا التوقف، وبعد المراجعات مع المسؤولين في عمّان، قال القائد عبد الله التل لوالدي أنه سوف يؤمن له ولخلدون سيارة عسكرية في صباح اليوم التالي تقلهما إلى القدس، وأردف بأنهما لا شك سوف يصلان قبل الجيش. وفعلاً

وصلا في الصباح نفسه، أي في الخامس عشر من أيار. (أمّا الجيش العربي الأردني فلم يصل فعلياً إلا بعد أيام، في اليوم الثامن عشر!!)

لما وصلت السيارة العسكرية التي أقلت والدي وأخي على مقربة من القدس، كانت شوارع القدس القديمة وما يحيط بها، كأنها في يوم القيامة. وصلا وبصعوبة بالغة، ومع أزيز الرصاص، إلى المقر الجديد لحلمي باشا في دار الأيتام الإسلامية، وكان قد انتقل إليه في مساء اليوم السابق. ثم، هل من داع للقول إن القدس الغربية كلها كانت قد احتُلت؟ الشيء الوحيد الذي بقي لوالدي من مكتبته، ما كان قد حمله معه في السيارة: آلتان للطباعة، واحدة للإنكليزية، وثانية للعربية!!

ومن المكتبة إلى البيت

كان بيتنا في حي البقعة الفوقا، في شارعها الرئيسي مقابل سكة الحديد، وكنا من شرفة بيتنا نشاهد جزءاً من الشارع التجاري الكبير الذي تتباهى به جارتنا، البقعة التحتا، وكنا كذلك، نشاهد أمامنا حي القطمون المرتفع على هضبة، وقد كان من الأحياء الجديدة، ويبني معظم ساكنيه الفيلات الأنيقة. أما حيّنا فكانت بيوته قديمة الطراز، يعلوها القرميد ذو اللون الأحمر الباهت قليلاً، وعلى النسق الألماني إجمالاً، وكانت الكولونية الألمانية من أقرب الأمكنة إلى بيتنا، كذلك كانت محطة سكة الحديد. أما أقرب المحلات التي كنا نرتادها بشغف فكان فرن فرانك، الذي كانت رائحة الخبز الشهي بأنواعه تملأ مبناه وساحته، وكذلك كانت منزلة سينما ريجنسي لدينا، خاصة حين كان يُسمح لنا بارتيادها.

لو سُئلت ما أكثر ما كان شارعنا الطويل يتميز به، لقلت، من دون تردد: إنها أشجار الكينا الباسقة، التي منها تعلمت الكبرياء مع الخشوع لله. أما الهدوء فكان شاملاً، حتى السيارات كانت لا تمر في شارعنا إلا قاصدة منزلاً معيناً، ونادراً ما يملك أحد السكان سيارة خاصة.

أذكر أننا كنا نشعر بالسعادة الكبيرة لأننا في القدس، المدينة التاريخية العظيمة، ليس فقط لأن هذا ما تعلمناه في البيت والمدرسة، بل لما كنا نشاهده بعيوننا في المدينة العتيقة، وأيدي الكبار تمسك بأيدينا خوفاً من أن نضيع في الزحام، كنا نشاهد أقصاها وقيامتها والدرج الطويل الذي مشى عليه السيد المسيح، وكذلك كان إعجابنا كبيراً بأبوابها وقبابها وأزقتها، هناك تاريخ في كل زاوية، غير أننا كنا نحب أيضاً شارعنا الذي لا عبق للتاريخ فيه، وكانت سعادتنا تتضاعف مع شعورنا بأن شارعنا لنا وحدنا، وكأن القدس قدسان: قدس للجميع وقدس لنا وحدنا - نحن الصغار - حيث كنا في شارعنا، نلعب الغمّيضة، ونركض وراء العجلة (الدحديله) بلا رقيب، وكنا نُركِّب الطائرات الورقية، ونحسد بنات الحي المجاور في سهل البقعة الفوقا - السهل الواقع خلف بيوتنا ــ، فطائراتهن كانت ترتفع أكثر من طائراتنا. لكن، يا لغبائنا، هنّ كن يتمتعن باللعب في سهل واسع كأنّه بلا حدود، ونحن يحدّ شارعنا سكة الحديد من جهة، وتحاصرنا من الجهة الأخرى أصوات الكبار بألا نقترب من السكة. حقيقةً، لم نكن نبالي، كان القطار صديقاً حميماً لنا، نسعد بصفيره، ويدهشنا جبروته، وكأننا في كل مرة يمر فيها نراه أول مرة. وكنا نأوي من شدة التعب من اللعب، إلى بيوتنا حتى قبل المغيب أحياناً. ولا أنسى كم كنت أشعر داخل البيت بأمان عجيب لم أدرِ إلى اليوم سبباً له، خاصة و أن الأحداث كانت تتفاقم في الأشهر الأخيرة. لكن لم يمر يوم خطر لنا فيه أن يكون ذاك العام هو عامنا الأخير في القدس.

هل أسمح لنفسي أن أعود بالذاكرة إلى بيتي. ولو قليلاً؟

كان البيت متسع الأرجاء، فيه سبع غرف وليوان كبير كنا نقضي فيه كعائلة معظم الأوقات، وكان الراديو يقبع في إحدى زواياه، ونحن حوله نتحلق لنستمع إلى الأخبار، وكثيراً ما كانت أختي الكبرى نورا، تطلب بحزم مني ومن أختي سوسن أن نسكت عن الثرثرة كي تستمع إلى عبد الوهاب. أمّا قرب المدخل، فكان هناك التليفون الثابت المكان ورقمه (٤٧٠٢)، كان يسعدني أن أكون أول من يرد على التليفون لأسجل لوالدي أسماء أصدقائه وأصحاب الدعاوى منذ أن عاد إلى المحاماة. ولا أنسى رقم مكتب والدي، وهو (٥١٥٥). وكان هناك باب واسع لليوان يأخذنا إلى الشرفة العابقة صيفاً بالريحان والفل والياسمين، الذي لا يخلو منه بيت في القدس، أما ملك الأزهار على شرفتنا فكان عرف الديك المخملي الخمري.

كنّا نسكن الدور الثاني، ويسكن الدور الأول جارنا الأستاذ العلامة باللغة العربية، عادل جبر، ولا أنسى الليالي الطوال وهو في الصالون مع والدي يتناقشان حول مسألة تاريخية أو فقهية أو لغوية، ويناديني والدي كي آتيهما بكتاب ما، كانت تلك من أسعد اللحظات لدي، فأنا مؤتَمنة على مكتبته، وكنت أعرف مكان الكتب، ولا

أذكر أن والدي قال لي مرة: "لا تقربي هذا الرف!"، أو "أن هذا الكتاب ممنوع!"؛ فالكتاب عنده توأم الحرية.

كنت أدرك أن بيتنا لم يكن من البيوت الثرية ذات الأثاث الفاخر، وأسخر ممن يعتقدون بأهمية المظاهر. كنت أحب في بيتنا الكتب موزعة في كل ركن، وليس في غرفة والدي وحدها، حيث كانت هناك سبع خزائن على طراز واحد، كان لكل منا مكتبته الخاصة، حتى أختي الصغرى جنان، كانت لها رفوفها العامرة بكتب الأطفال. وكان والدي مغرماً أيضا باللوحات الفنية، ولا أدري من أين ابتاع لوحة زيتية للقائد خالد بن الوليد، فعلقتها أمي في صدر البيت. ولا أنسى ثلاثة أشياء أحببتها جدا في بيتنا: تلك اللوحة، وتلك المكتبة، وذلك الهدوء النفساني على الرغم من الاضطرابات في الخارج، فداخل البيت كان هناك الأمان. وكان هناك حلمي بأن أكبر وأدرس الحقوق كما درس والدي!

بعد صدور قرار التقسيم، ونشوب حرب ضده، وتوقف المدارس، وصوت أزيز الرصاص الذي كان يملأ آذاننا بين الحين والحين، لم تعد القدس هي المكان الآمن للكثيرين، إلا لوالدي وأمثاله القلائل الذين آمنوا بضرورة البقاء. تعلمت في تلك الأشهر، تاريخ العرب من خلال روايات جرجي زيدان التاريخية، كما أنني كنت أستمع إلى الأخبار، وأنقلها لوالدي حين يكون يتحدث مع أصدقائه. كنت أحاول أن أفهم - وأنا في العاشرة من عمري - لماذا القتال؟ لكنه كان يصعب عليّ حقاً استيعاب ما يجري. القدس التي أعرفها هي قدس الناس الذين أحبهم وأعرفهم أو أسمع عنهم، هي قدس العرب واليهود والأرمن والناس الذين آثروا العيش فيها من مختلف الجنسيات. وكيف أنسى مدرستي الألمانية وجميع المسؤولين فيها من رئيسها ومديرتها والراهبات، فأنا تلميذة كلية شميدت للبنات، وانفتاحي على الدنيا كلها كانت بداياته في مدرستي. أما مجيئي إلى الدنيا فكان على يد قابلة قانونية يهودية، اسمها خايه، وما ذكرتها أمي مرة إلا مع الدعاء لها، وكذلك أنا. لكنني فجأة وجدت نفسي في خضم حرب قد تنتهي إلى ضياع وطني، وضياع بيتي! أهذا معقول؟!

أذكر يوماً ليس ببعيد، سألني فيه أحدهم من غير مقدمات، وكأنني به كان يعرف الجواب: "بالتأكيد كان بيتكم في القدس ملكاً لكم. أليس كذلك"؟ وأجبت ببساطة: "لا، كان بالإيجار". وهنا علت الدهشة المصطنعة وجهه: "إذاً، اسمحي لي بأن أقول لك، إنه من المستحيل على امرئ لم يكن صاحب ملك أن يشعر بما أشعر به أنا مثلا، إن بيتي وبساتين الزيتون التي كنا نمتلكها أغلى عندي من الدنيا كلها. قولي لي بصراحة يا أختاه: هل تملكين غير الذكريات"؟

لا يعنيني الآن كيف أوقفت الحوار مع إنسان كهذا، بل جلّ ما يعنيني هو السؤال الذي يقض مضجع شعب بأسره، ألا وهو السؤال عن العودة. هناك من يعتقد أن العودة ما هي إلا مجرد العودة إلى البيت أو البيّارة أو البستان المتوارث أباً عن جد، كيف ستكون هذه العودة "إذا" وقد غيرت إسرائيل من معالم فلسطين كلها؟ دمرت قرى بأكملها، ومحت أسماء مدن، وهدمت ما تشاء من شوارع وأبنية، واحتلت داخل البيوت قبل البيوت، فكيف ستكون هذه العودة؟!

أنا أعجب من مجرد السؤال. وأطرح سؤالاً بدوري: متى غادرنا بلادنا حقا كي نعود إليها؟ ألا تعيش بلادنا في حنايانا ليل نهار؟ أليست معنا؟ ومن قال إن الوطن ليس إلا بيتاً وحجارة وصك ملكية؟ وبالمناسبة، يسمى مثل هذا الصك أو السند في فلسطين بـ"الكوشان".

أما الواقع فهو أن هناك كثيرين لم يزوروا فلسطين مرة، غير أنهم يحبونها أكثر من محدثي ذاك بألف مرة.

سألت أخي يوماً، لو استطاع الوصول إلى بيتنا في القدس، ولو كان البيت ما زال كما كان، ولو كان له الحق بأن يأتي معه بشيء واحد، فبِمَ يأتي؟ كان جوابه حاضراً: "ألبومات الصور". وسألت والدي يوماً السؤال نفسه، فأجاب بحسرة: "أعود بمراسلاتي مع أصدقائي". وسألته: "وإن لم تتمكن من حملها كلها؟"، أجابني: "أبدأ برسائل الأمير شكيب أرسلان".

أما لو طرحت السؤال على نفسي، فأقول إنني أعود ومعي لوحة خالد بن الوليد، وأعترف بأن ليس لي من أمنية سوى زيارة بيتي مرة، ولو في ظل الاحتلال. أعرف أن حديقتنا تغيرت، ماتت فيها أشجار المشمش والرمان والبيلسان، وابتلعت الأرض زهرات كأس القاضي وأوراقها الخضراء، التي كانت "تعربش" على الجدران، وتمتد على كل ذَرة من تراب الحديقة. وقد شاهدت أخيراً، كيف اقتُطع جزءٌ من الحديقة كي يتحول إلى موقف للسيارات على الشارع، كذلك شاهدتُ من خلال الصور والفيديو الذي صوره لي صديق دبلوماسي أوروبي، سنة ١٩٩٦، أن بيتي أصبح له رقم، وهو الرقم ١٩ في "رحوف هركيفيت" (Rehov Harakevet)، أي "شارع القطار".

ربما ذاك كله مجرد حنين. غير أن الحنين ليس من المحرمات. وزيارة الإنسان لبيته ليست من المحرمات.. ويبقى السؤال:

ما هو البيت؟ وما يعنيه؟

البيت هو الوطن. وعندما تكون فلسطين هي الوطن، لا تغدو وطناً لأهلها فقط، بل لجميع أحبائها، وجميع المؤمنين بتاريخها وحضارتها وتراثها وأقصاها وقيامتها.